بحث ألقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية المعاصرة

بيروت 11-12 شباط 2006م.

قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية
في الدراسات القرآنية المعاصرة

د. رقية طه جابر العلواني
www.drruqaia.com

مقدمة

تتناول هذه الدراسة إشكالية ضبط تأويل النصوص القرآنية في العصر الحاضر. تلك الإشكالية التي أفسح غياب الالتزام المتزن بها، المجال أمام عشرات التأويلات المنحرفة التي غيبت مقاصد النصوص التشريعية، لتجعل من التأويل جدلية منفتحة لمختلف التوجهات الذاتية.

الأمر الذي أدى إلى التحول من الاهتمام المباشر بالنصوص ومعانيها الظاهرة ومحاولات تنزيلها على الواقع الإنساني لتهذيبه ومعالجته، إلى الانتقال إلىالمؤول والاهتمام بتفنيد تأويلاته وأفكاره والرد عليها.

وتظهر خطورة هذا المنحى الفكري جلية في محاولات ليّ أعناق النصوص القرآنية والخروج بها عن مفاهيمها الواضحة بادي الرأي لتتلاءم مع توجهات فكرية معينة، خاصة تلك التي ظهرت في بعض الدراسات القرآنية بما يمكن أن نطلق عليه القراءة العصرانية للقرآن، التي تعتبر المحضن الأول للتأويل الحر المؤسس وفق الخبرات الشخصية والتجارب الذاتية.

لهذه الاعتبارات يعد استدعاء إشكالية ضبط التأويل إلى أروقة الحوار الفكري، من الضرورات الملحة لضمان تحقيق إطلاقية النصوص القرآنية وتنزيهها عن التأويلات المنحرفة والقراءات الشاذة التي برزت كثيرا في العصر الحاضر.

وقد وقفت الدراسة على بعض من ضوابط التأويل وأكثرها جدلا وهي: القراءة الشمولية للنصوص والاعتماد على شهادتها الداخلية لأي تأويل أو فهم، مع الاهتمام بقواعد اللغة العربية التي بها نزلت النصوص، والاهتمام بالقراءة المقاصدية لسور القرآن ومحاورها.

أولا: أنماط التأويل في الدراسات القرآنية المعاصرة

لا يحتاج المتأمل في الدراسات القرآنية المعاصرة إلى عظيم جهد للتوصل إلى واقعها المتسم في غالب الأحيان بالميل إلى واحد من اتجاهين: الأول متمثل في توسع هائل في تأويل النص القرآني والثاني في تضييق مجحف في فهم النص القرآني.

أما الاتجاه الأول فقد شهدت الكتابات القرآنية المعاصرة (من خلال كتابات رواد ما يمكن أن يطلق عليه القراءة العصرانية للقرآن) محاولات جلية في الانفكاك من كل ضابط أثناء تناول النص القرآني.

واتضح ذلك من خلال خوضهم في تأويلات بعيدة كل البعد عن مقاصد القرآن واستعمالات اللغة العربية ومدلولاتها، وأحيانا إغراق المتلقي في تفاصيل لم يقف عندها القرآن.

وقد ظهر في تأويلاتهم الكثير من الانحراف والزيغ والتأويل الفاسد والخروج عن كل ما تعارفت عليه جماهير العلماء والمفسرين وأهل اللغة..كل ذلك تحت دعوى ضرورة القراءة الجديدة للقرآن.

و استندوا في ذلك إلى القول بأن معنى النص متغير حسب الأحوال النفسية للمتلقي والفروق والبيئات الثقافية والعصور المختلفة، فقد يأخذ النص الواحد معاني مختلفة طبقا لمراحل عمر الإنسان وتجاربه الخاصة وبهذا يكون النص مساوقا لتطور الفرد في مراحل عمره ومساوقا لمجموع التغيرات في كل عصر[1].

ويقارب اتجاه العصرنة في الفكر الديني في الإسلام مبادئ ما بعد العصرنة في الفكر الغربي، الذي قام بإعطاء المتلقي شرعية التأويل الحر وفق خبراته الشخصية وتجاربه الذاتية.

---

[1] - انظر على سبيل المثال ما كتبه: حسن حنفي، قراءة النص، مجلة ألف، العدد الثامن، ملف الهرمينوطيقيا والتأويل، 17-18. وأنظر كذلك: محمد شحرور، مرجع سابق، ص 580. يقول الكاتب في هذا السياق أن التشريع الإسلامي تشريع مدني إنساني حنيفي متطور بتناسب مع رغبات الناس ودرجات تطورهم التاريخي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي ويقر بأعراف الناس...ص 580. وأنظرللدكتور حسن حنفي، *التراث والتجديد ..موقفنا من التراث القديم*، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط3، 1987م، 33 وما بعدها.

فالتأويل في نظرهم جهد عقلي ذاتي يخضع فيه النص الديني لتصورات المتلقي ومفاهيمه وأفكاره[2].

وهو في الواقع جهد متعمد لرمي القديم ووضع طريقة جديدة للنظر إلى أي كتاب مقدس. وعلى هذا يرى دعاة العصرنة وما بعدها **تأويل الكتاب المقدس حقا لكل شخص، فما يعنيه النص لشخص ما، لا يعني أنه هو بعينه ما يقصده لشخص آخر، فلكل واحد الحرية** في **تأويل وفهم النصوص الكتابية طبقا لتراثه الخاص وتجربته الإنسانية**. ومقتضى هذا المذهب الجديد، ليس هناك ثمة مقياس محدد الهيئةِ، وإنما كل متلقي يصبح قانونا على نفسه[3].

من هنا جاء نقدهم متمركزا حول تأويل النصوص القرآنية بشكل خاص فإذ لم يتمكنوا من الابتعاد عن القرآن، فلا أقل من وجوب تغيير طريقة النظر والفهم له[4]. ويعتبر هذا المبدأ عمدة لأفكارهم[5].

---

[2] - أنظر على سبيل المثال في مقالات: نصر أبو زيد، *فلسفة التأويل دراسة في تأويل القرآن عند محي الدين بن عربي*، بيروت، 1983 م، 5 وما بعدها. وأنظر للمؤلف، *إشكاليات القراءة وآليات التأويل*، بيروت، 1992م، 228. وراجع ذلك كله بتفصيل أكثر والرد عليه كذلك في كتابنا: أثر العرف في فهم النصوص..قضايا المرأة أنموذجا، دا رالفكر، دمشق، 2003م، ص

[3] - انظر ما كتبه محمد شريح، استراتيجا التجديد، الخلفيات النفسية والفكرية، مقال في مجلة الملتقى الفكري للإبداع، العدد الاول على موقعها على الانترنت:
http://www.almultaka.net/majalla1.php?subaction=showfull&id=1093223600&archive=&start_from=&ucat=20

[4] - تزايد التركيز في الآونة الأخيرة عالميا على هذا النوع من القراءة، من ذلك المؤتمر الدولي الذي أقامه قسم اللاهوت في جامعة نوتردام في شهر ابريل (2-4)- 2005م، وقد شارك في المؤتمر جمع من المستشرقين المتخصصين في دراسة القرآن. رادع كذلك ما كتبه سامر رشواني على موقع المجلة: الملتقى الفكري للإبداع:
http://www.almultaka.net/moutamarat.php?subaction=showfull&id=1118804301&archive=&start&_from=&ucat=9

[5] - راجع ما كتبه علماء الغرب حول هذه النزعة وموقفها من الكتاب المقدس ذاته في: Garland M. Robinson, *Seek The Old Paths*, Vol. 8 No. 9 September 1997
وانظر كذلك ما ذكرناه في بحثنا الموسوم ب: اثر الظرفية التاريخية والفكرية في ظهور القرآنيين الجدد، في ندوة: " الجهود المبذولة في خدمة السنة " المنعقدة في جامعة الشارقة، بتايخ: 4-5 مايو 2005م.

وقد أفرز هذا الاتجاه دراسات اتسمت بمواقف أكثر خطورة لهؤلاء وتأويلات أكثر تحريفا وزيغا ويمكن وبرز نوع آخر من التأويل يمكن تسميته ب**التأويل الوضعي التاريخي** **Historical Posivitism**.

ويرمي أصحاب هذا الاتجاه التأويلي إلى القول بتاريخية النصوص القرآنية وارتهانها بالزمان والمكان الذي نزلت فيه. فتم النظر إلى النصوص على أنها وضع بشري ناسب طور الطفولة للعقل ثم إن العقل تجاوز تلك المرحلة فأصبحت النصوص تاريخية توافق المرحلة التي وردت فيها.

ويصرح الأستاذ العشماوي بذلك بقوله:

" أحكام التشريع في القرآن ليست مطلقة ولم تكن تشريع مجرد تشريع مطلق، فكل آية تتعلق بحادثة بذاتها فهي مخصصة بسبب التنزيل وليست مطلقة وكل آيات القرآن نزلت على الأسباب أي لأسباب تقتضيها سواء تضمنت حكما شرعيا أم قاعدة أصولية أم نظما أخلاقيا، إنما أحكام مؤقتة ومحلية تنطبق في وقت محدد وفي مكان بعينه..وبوفاة الرسول ﷺ انتهى التنزيل وانعدم الوحي ووقف الحديث الصحيح وسكتت بذلك السلطة التشريعية الإلهية"[6].

ولا يخفى أثر هذا التوجه ومخاطره في محاصرة أي فكر تجديدي مهما بلغت صدق الدعوة فيه وانضباطها، فلقد نجح هؤلاء في إفراز ردة فعل عنيفة في الفكر الإسلامي المعاصر تمثلت في إثارة الشكوك حول أي توجه فكري يطالب بالتجديد[7].

---

[6] - محمد سعيد العشماوي، *معالم الإسلام*، القاهرة: 1989م، 112 وما بعدها. وله مؤلفات أخرى تدور حول ذات الأفكار والأطروحات، أنظر على سبيل المثال: *الإسلام السياسي*، 1989. *الخلافة الإسلامية*، القاهرة، 1990م. *جوهر الإسلام*، القاهرة، 1992م. وللمزيد من الأمثلة على هذه المقولات، أنظر: نصر حامد أبو زيد، مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق، مجلة القاهرة، أكتوبر، 1992م. للمؤلف، *نقد الخطاب الديني*، سينا للنشر، مصر، 1992م، 82 وما بعدها.

[7] - انظر على سبيل المثال ما كتبه الأستاذ الدكتور عيادة بن أيوب الكبيسي، القراءة الجديدة للقرآن الكريم بين المنهج الصحيح والانحراف المسيء، بحث مقدم في مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي، الدورة السادسة عشرة، تاريخ 9-2005/4/14م، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ص 19. فقد اندفع الكاتب -حفظه الله- في التشكيك في أي دعوة إلى إيجاد العقل المسلم القادر على ممارسة دوره في الاجتهاد، منطلقا من

وهنا برز الاتجاه الثاني الذي رآى أصحابه أن الحفاظ على القرآن ومقاصده من تلك التأويلات المنحرفة لا يأتي إلا من قبيل الحد من دعاوى التجديد وتبني نهج التشديد والتضييق في الشروط التي ينبغي للمتلقي الالتزام بها حال تناوله النص القرآني. حتى بلغ الأمر حد التخويف والترهيب من الإقبال على القرآن الكريم بشكل مباشر دونما الرجوع إلى كتب التفاسير ونحوها في فهم النص القرآني مهما وضحت معانيه، وهو أمر له تداعيات خطيرة.

ويبالغ البعض من أصحاب الاتجاه الثاني في الحيطة والحذر حين ينظر إلى النص القرآني على أنه استنفد كل معانيه ودلالاته في عصور التنزيل والتدوين، ولم يعد للمتأخرين من البحث في القرآن ومعارفه وفهمه سوى البحث في تلك المصادر والتفاسير والإحالة عليها والوقوف عندها[8].

يقول الشيخ خالد المصلح في شرحه للأصول الستة مبينا خطورة هذا المنحى التشددي في مختلف العصورفي تعليقه على هذه الشبهة:" **القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق. . . فإن** لم **يكن الإنسان كذلك** يعني موصوفاً بهذه الصفات التي اشترطوها للمجتهد المطلق **(فليعرض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه،)** وهذا خلاف ما أمر الله به في كتابه، فالله عز وجل قال: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند** غير الله **لوجدوا فيه اختلافا كثيراً** ﴾[9] ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[10] ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته** ﴾[11] ﴿ **إن** في **ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[12] كل ذلك دعوة إلى التفكر والتأمل الذي يثمر الاستنباط ونتائج الاجتهاد، فالاجتهاد نتيجة للتفكر والتأمل والنظر في كلام الله

التخوف الشديد من التيارات الداعية إلى قراءة جديدة للقرآن الكريم، مستندا في شكوكه ومخاوفه إلى مجموعة الأفكار التي تم طرحها من قبل بعض المعاصرين من أمثال الأستاذ محمد شحرور، ونصر أبو زيد وغيرهما من دعاة القراءة العصرانية.

[8] - راجع حول ذلك البحث السديد الذي قدمه الأستاذ الدكتور قطب مصطفى سانو، في مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي في دورته 16 بعنوان: القراءة الجديدة للقرآن والنصوص الدينية رؤية منهجية، ص 24 وما بعدها.

[9] - سورة النساء : 28 .

[10] - سورة محمد : 24 .

[11] - سورة ص : 29.

[12] - سورة الروم : 24 .

ﷻ فمن لم ينظر في كلام الله ﷻ ولم يتدبره فإنه لا يتوصل إلى ما يريد من استنباطات حكميةٍ أو شرعية، فإن سبيل حصول الحكم: هو التدبر والنظر. .. **ومن طلب الهدى منهما(أي من القرآن والسنة) فهو إما زنديق وإما مجنون** يعني: لأجل صعوبة فهمهما، وهذا غلط، فإن الله ﷻ يقول: ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾[13] فالله يسر القرآن، وهؤلاء يقولون: إنه عسير، وتيسير القران هو تيسير قراءته وفهمه، وليس فقط تيسير القراءة اللفظية، فإن القراءة اللفظية على العرب في ذلك الوقت من أسهل ما يكون، ولكن الكلام في تيسير الفهم وتسهيله، وهذا ما تميز به القرآن، فإنه يفهمه العامي ويفهمه العالم، لكن هذا القدر المشترك بين العامي والعالم ليس مانعاً من أن يتفاضل الناس في فهمه، فمن الناس من يؤتى فهماً عميقاً في القرآن، ومنهم من يقتصر على فهم اللفظ في حده الأدنى، ويشهد لهذا تفاضل الصحابة رضي الله عنهم، مع أنم أهل اللسان في فهم آي القرآن.."[14].

وقد وصف ابن عاشور رحمه الله شبيه حالة هذين التيارين في زمانه بقوله: " و لقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف فيما شاده الأقدمون، وآخر آخذ بمعوله فى هدم ما مضت عليه القرون، وفى كلتا الحالتين ضرر كثير. و هنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير ، و هى أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه و نزيده، و حاشا أن ننقصه أو نبيده، علماً بأن غمض فضلهم كفران للنعمة، و جحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة"[15].

وما بين هذين التيارين، عانت الدراسات القرآنية المعاصرة ولا تزال، من البعد والزيغ عن المنهج الوسيط القويم الذي يروم إبقاء النص القرآني حاكما مهيمنا على الحياة بمختلف

---

[13] - القمر : 17 .

[14] - انظر النص كاملا لأهميته في: خالد بن عبدالله المصلح، شرح الأصول الستة، على عنوان الموقع الالكتروني التالي: www.almosleh.com

[15] - محمد الطاهر بن عاشورن تفسير التحرير والتنوير، ج1، ص 1.

مجالاتها، ميسرا للفهم والإدراك طالما أتاه المتلقي ناشدا الهداية مستفرغا الوسع والجهد في الفهم بلا رأي مسبق أو فكر مغلق، محاولا تحصيل أساسيات الفهم من لغة ونحوها[16].

و مما اتسمت بعض الدراسات في عصرنا الحاضر، محاولات تطويع النصوص القرآنية للأفكار الجاهزة والدوافع المسبقة. الأمر الذي أدى إلى تنحية النص القرآني عن بؤرة الانطلاق ومصدرية الهداية ومحوريتها للمتلقي، وغياب ضرورة الإتيان إلى النصوص القرآنية بذهنية قابلة للاحتكام إلى النصوص وغاياتها قادرة على بذل أقصى الوسع في تفهم النص واستخراج معناه ومن ثم التسليم والاحتكام إلى مقتضاه.

وبدأ التحول من الاهتمام المباشر بالنصوص ومعانيها الظاهرة ومحاولات تنزيلها على الواقع لتهذيبه وترشيده ومعالجته (كما كان على ذلك الصحابة ومن تبعهم)، إلى التحول باتجاه المؤول والاهتمام بالرد على أفكاره والتفنيد لتأويلاته والحكم على توجهاته الفكرية والاكتفاء أحيانا بالختم عليه بهذه السمة أو غيرها لإخراج الأمر من دوائر الفكر والحوار إلى دوائر النزاع والصراع، ليبقى النص القرآني في نهاية الأمر بعيدا كل البعد عن واقع الحياة، معزولا عن الفصل بين الآراء والمواقف.

والدراسة إذ تعرض لبعض هذه التوجهات، تحاول تقديم تأطير جاد لبعض ضوابط التأويل بما يمكن أن يسهم في إعادة الدراسات التأويلية إلى خط الوسطية.

ثانيا: قراء ة جديدة في ضوابط تأويل نصوص القرآن الكريم

لعل من نافلة القول الإشارة إلى أن محاولة ضبط عملية الفهم والتأويل في النصوص لا تعني إلغاء حرية الفكر أو الفهم والتدبر في آيات القرآن الكريم، فالتدبر والتعقل أمر أوجبته الآيات القرآنية المتضافرة. بيد أن ذلك لا يعني فتح الباب على مصراعيه لكل تأويل مهما بعد عن مقاصد الشريعة أو نازل أحكامها الثابتة.

---

[16] - راجع حول ذلك كتابنا: تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، مطبوعات جائزة راس الخيمة الدولية للقرآن الكريم وعلومه، الطبعة الثانية، 2005م. فقد فصلنا القول في الأدوات القلبية والعلمية التي ينبغي للمتدبر في كتاب الله تحصيلها.

والمتأمل في المناهج المختلفة للمدارس الإسلامية في مختلف العلوم والفنون، يتضح له أن المقرر لديهم في الأصل إبقاء النصوص على ظواهرها دلالة على معانيها الأصلية كما وضعت في اللغة. إلا أن تأويل النصوص بصرفها عن معناها الحقيقي إلى المجازي أو الكنائي توجه معروف عندهم على تفاوت فيما بينهم في توسيع نطاقه أو تضييقها[17] واتفاق على أن التأويل لا يكون إلا بدليل أو قرينة[18].

وإشكالية التأويل -كما هو معروف- تتعلق بجدلية العلاقة بين العقل والنص. فمرحلة الفهم تتعلق بكيفية تعامل العقل مع الوحي في مظهره النصي لتبين المراد منه. ومن المعلوم أن العقول تتفاوت في تبين هذا المراد إما لسبب يرجع إلى العقل ذاته أو لسبب يعود إلى تلك النصوص من حيث ظنية دلالتها وإما لمقصد إلهي يجعل النصوص مناطا مستديما لنظر العقل[19].

ويمكن إجمال أهم هذه الضوابط وأبرزها فيما يلي:

الضابط الأول: القراءة الشمولية للنصوص

ويراد بها القراءة التي تقوم على استقصاء وتتبع وجمع لكافة النصوص الواردة في المسألة أو الموضوع الذي يراد البحث عنه أو تأويله في القرآن الكريم، ليخرج المتلقي من خلال هذه القراءة بنظرة شمولية استقصائية جامعة.

ومن ثمّ يبحث المتلقي في دلالات الألفاظ المستعملة في السياق القرآني مع عدم إغفال الرابط بينها وبين السورة التي توجد فيها تلك المسألة المراد البحث عنها وتأويلها. والغاية من هذا النوع من القراءة، إبقاء عملية فهم النصوص وتأويلها دائرة في إطار مرجعيتها لنصوص القرآن ذاتها التي ينبغي أن تبقى الفيصل في التأويلات المختلفة.

---

[17] - شاع عن الظاهرية جمودهم على ظواهر النصوص وعدم قبولهم بالتأويل مطلقا، والواقع أن منهجهم فيه نوع من الجمود ورغم ذلك فقد لجئوا إلى التأويل حينما دعت الحاجة لذلك. أنظر في ذلك ابن حزم، *المحلى*، مرجع سابق، ج7، 331ا. وأنظر كذلك الشيخ يوسف القرضاوي، من محاذير التفسير: سوء التأويل، مجلة إسلامية المعرفة، العدد8، على موقع المجلة على الانترنت: http://www.eiiit.org/articles.asp?adad=270 .

[18] - انظر في ذلك القرضاوي، المرجع السابق.

[19] - بتصرف عن: عبد المجيد النجار، *خلافة الإنسان بين الوحي والعقل*، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أميركا، الطبعة الثانية، 1413/1993م، ص 92.

ويشهد لهذه الضابط القرآن الكريم، فالله عز وجل يقول في كتابه: (ورتل القُرآنَ ترتِيلاً)[20] والرتل في اللغة: حسن تناسق الشيء، وانتظامه على استقامة[21] وهو الصف على نسق معين. فمواضيع القرآن جاءت متفرقة في السور، فلا يفهم أو يؤول الموضوع الواحد دونما ترتيل لمختلف الآيات الواردة حوله، بمعنى أخذ الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد وترتيلها واحدة تلو الآخرى.

وقد تباينت أساليب التعبير عن هذا الضابط لدى العديد من المفكرين المعاصرين فمنهم من أطلق عليه التفسير الموضوعي[22]، ومنهم من عبر عنه بالوحدة البنائية للقرآن[23]...كما عبر عنه السابقون رحمهم الله أحيانا بتفسير القرآن بالقرآن وعدوه أعلى مراتب التفسير.

والمراد بهذا كله الإحالة على القرآن في فهمه وتأويله من داخله، فيرد الجزئي إلى الكلي وترد الكثرة إلى الوحدة وترد التفاصيل إلى المنهج في إطار فهم تلك الوحدة كما سيأتي تفصيله.

ويقابل هذا النوع من القراءة، القراءة العِضين أو قراءة التعضية أو العضينية[24]، أو الفهم الجزئي[25]، وهي القراءة التجزيئية التي تفرق بين النصوص الواردة في المسألة الواحدة فلا تضم الواحد منها إلى الآخر حال تناولها لمسألة معينة أو حكمها، وقد تقوم بانتزاع الجملة أو الكلمة من سياقها التي وردت فيه لتخرج بحكم مجتزئ، يناقض مقصد النص ذاته.

والمتأمل في واقع الدراسات القرآنية خاصة تلك التي تبناها دعاة القراءة العصرانية، يلحظ نزوعا وتغافلا عن هذا الضابط يصل حد تفكيك النص واقتطاعه.

---

[20] - سورة المزمل، الآية 4.

[21] - مرتضى الزبيدي، تاج العروس، ج24، ص 7086.

[22] - انظر ما كتبه الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 2000م، ص 37.

[23] - الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني، ذكرها في كثير من كتاباته منها: سلسلة درسات قرآنية، الوحدة البنائي للقرآن المجيد. وأزمة الإنسانية ودور القرآن في الخلاص منها، دار الهادي، بيروت، 2005، ص 24.

[24] - حول القراءة العضين راجع ما كتبناه في بحثنا: القراءة العضين وتداعياتها في فهم السنة النبوية، بحث ألقي في الندوة العلمية الدولية للحديث الشريف والتي أقيمت في كلية دبي للدراسات الإسلامية والعربية بتاريخ 21 مارس/ 2004م. وراجع كذلك: طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد. نشر في الملتقىالفكري للإبداع بتاريخ 12 أبريل 2005م. http://www.almultaka.net/abhass.

[25] - هكذا اطلق عليها فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه كيف نتعامل مع القرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991م، ص 87.

في حين أنه من الضروري الاهتمام بالقراءة الشمولية التكاملية التي تستقصي المواضع كلها الواردة في المسألة وإجراء المقارنة بينها واستيفاء بعضها من بعض ليستبين من ذلك كله الفهم الصحيح.

يقول الشاطبي رحمه الله في أهمية ذلك: "إن القضية وإن اشتملت على جمل، فبعضها متعلق ببعض؛ لأنا قضية واحدة نازلة في شيء واحد، فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على أخره، وإذ ذلك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض"[26].

إن النظر الجزئي في النص الديني (قرآنا وسنة)، اقتصاراً على موضع من مواضع البيان، يؤدي إلى فهم خاطئ بل قد يؤدي إلى ما يخالف المراد من النصوص. وقد شهد تاريخ الفكر الإسلامي نماذج عدة من نزعات الفهم الجزئي، التي قصرت عن النظر الكلي الشمولي[27].

ومن ذلك ما ساقه بعض المعاصرين معتمدا على قراءة مجتزئة لنص قرآني خرج من خلالها بتأويل بعيد كل البعد عن الآية ومقصدها الظاهر بادي الرأي.

يقول أحد الكُتاب في تأويل قوله تعالى: ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله [28]: "فالآية تقرر حكماً عاماً مستمراً إلى قيام الساعة بعد وفاة محمد عليه السلام. فالهجرة في سبيل الله وفى سبيل رسوله- أي القرآن- قائمة ومستمرة بعد وفاة النبي محمد وبقاء القرآن أو الرسالة.وأحياناً تعنى كلمة "الرسول" القرآن فقط وبالتحديد دون معنى آخر. كقوله تعالى لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (الفتح 9).....فهذا التأويل لا يحتاج المتلقي إلى عظيم جهد لإدراك بعده عن احتمالات العربية واستعمالاتها.

---

[26] - أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، تحقيق: عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج3، ص 413.

[27] - راجع كتاب الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، مرجع سابق، ص 88.

[28] - سورة النساء: الآية 100.

ويواصل الكاتب تأويله لمفردات قرآنية دون أن يكون لها قرينة تستوجب صرفها عن معناها الظاهر الذي تحتمله اللغة واستعمالاتها فيقول:" فكلمة "ورسوله" هنا تدل على كلام الله فقط ولا تدل مطلقاً على معنى الرسول محمد. والدليل أن الضمير في كلمة "ورسوله" جاء مفرداً فقال تعالى وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا والضمير المفرد يعنى أن الله ورسوله أو كلامه ليسا اثنين وإنما واحد فلم يقل "وتعزروهما وتوقروهما وتسبحوهما بكرة وأصيلا""[29].

والكاتب هنا وقع في تأويلات متعسفة بعيدة رتبها على أمر واحد وجزء مقتطع من الآية الكريمة وانقطاع عن فقه اللغة واستعمالاتها وعدم اطلاع على تفاسيرها وأقوال العلماء فيها. فقد ذهب جل المفسرين إلى أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وأمته، كما أن الضمائر في الآية المذكورة تعود لله عز وجل والمراد بتعزيز الله تعزيز دينه ورسولهﷺ[30].

ولعل الكاتب أتى إلى النص القرآني برأي مسبق لمحاولة ليّ أعناق النصوص وتطويعها في محاولاته لتمرير القول بعدم حجية السنة[31].

ومما لاشك فيه أن التعامل مع القراءة الشمولية يقتضي دراسة النصوص والإحاطة بمختلف جوانبها من سياق ومقام ونحوه،كما تقتضي العناية بتفسير دلالات ألفاظ القرآن بالقرآن. إضافة إلى الاهتمام بكافة الدراسات اللغوية التي يمكن لها أن تكشف عن بنية القرآن اللغوية المتفردة بكافة مستوياتها.

فمن أراد تفهم النص القرآني، فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة. ومعنى عربيته أنه أنزل على لسان معهودها في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها وأنا فيما فطرت عليه من لسانا تخاطب بالعام يراد به ظاهره وبالعام يراد به العام في وجه

---

[29] - راجع في ذلك: أحمد صبحي منصور في كتابه على الانترنت: القرآن وكفى مصدرا للتشريع الإسلامي، على الموقع الالكتروني التالي: http://metransparent.com/texts/ahmed_sobhi_mansour_quran_is_enough.htm ص 19.

[30] - راجع في ذلك المراجع التالية: النحاس، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، مطبعة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1409هـ، ج6، ص 449. محمد بن بهادر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،دار المعرفة، بيروت، 1391هـ، قاعدة في الضمائر، ج4، ص 36. محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، ج5، ص 47.

[31] - ظهر ذلك جليا في بقية الكتاب ومقالاته الأخرى التي صرح فيها بذلك. راجع الكتاب السابق، ص 25 وغيرها كثير.

والخاص في وجه وبالعام يراد به الخاص والظاهر يراد به غير الظاهر وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره أو آخره عن أوله وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة وهكذا. ويقول الشاطبي رحمه الله في ذلك: " لسان العرب هو المترجم عن مقاصد الشارع.."[32].

وقد ظهرت في الدراسات القرآنية المعاصرة جملة من الأدبيات اللغوية الرصينة التي تميزت بإبراز هذا النهج وإظهار مواطن الاعجاز القرآني من خلال اللفظة القرآنية الواحدة والسياق الواردة فيه ومعانيها اللغوية بعبارات عصرية رصينة[33].

كما ظهرت توجهات جديدة في العصر الحاضر تبنت النظريات اللغوية الحديثة أو ما يعرف بعلم اللسانيات، وبدت وكأنا فتح جديد لم يطرق بابه من قبل خاصة وأنا جاءت ضمن النظريات الوافدة من الغرب[34]. في حين أن مفهوم الدلالة (على سبيل المثال) من المباحث الهامة في علم أصول الفقه وقد شغل مساحة هائلة في كتابات الأصوليين، وقد تنبه الأصوليون إلى مشكلة المعنى وأثرها في فهم المضمون كما تعددت تقسيماتهم للدلالة لما لها من أثر في استنباط الأحكام وقيام التكليف. وأفاض الأصوليون في مباحثهم عن الحديث حول الدلالة من حيث الوضوح والخفاء لعلاقة ذلك بالحكم[35]. بيد أن تلك الجهود والمحاولات الرائدة لم يكتب لها الاستمرار والتواصل. ولهذا الاعتبار قد يكون من المفيد الاستعانة بما وصل إليه هذا العلم في

---

[32] - الشاطبي، المرجع السابق، ج4، 324.

[33] - من أمثلة هذه الدراسات ما كتبه الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار عمار، الأردن، الطبعة الثانية، 2001م. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمار، الأردن، الطبعة الثانية، 2001م. وغير ذلك كثير.

[34] - دخل علم اللسانيات الحديث إلى العالم العربي بعد الأربعينيات حيث تم إيفاد عدد من المصريين للتكوين في المدارس الأوروبية والأميركية . أنظر ذلك في: عبد القادر الفاسي الفهري، *اللسانيات واللغة العربية*، منشورات غريدات، بيروت، 1986م، 51.

[35] - لا يخلو كتاب من الكتب الأصولية في القديم والحديث عن الكلام حول مباحث الألفاظ والدلالات، بل تعتبر تلك المباحث عمدة علم الأصول، ولا عجب، فعلم الأصول في حقيقته ميزان دقيق لضبط عملية الاجتهاد. ومن الباحثين المعاصرين الذين تنبهوا إلى أصالة علم الدلالة عند العرب: عبد الكريم مجتهد، 1979م، قضايا اللفظ والمعنى عند ابن جني، رسالة ماجستير ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية. يقول في ذلك:" أن الأصالة في سياق الحال إنما هي لابن جني من اللغويين العرب وليست للغوي الأنجليزي فيرث والذي يعتبر رائد المدرسة الاجتماعية أو مدرسة سياق الحال-Context Situation- في علم اللغة الحديث".

الوقت الحاضر. إذ أن عملية فهم النص تقتضي استحضار جوانب متعددة وتوظيف وسائل وآليات متنوعة بغية الوصول إلى الهدف.

إلا أن الانسياق في تقمص المناهج الحديثة وحدها في فهم النصوص عملية لها مخاطر عديدة ونتائج قد تخرج بالنصوص عن أهدافها نظرا للانسياق الحاد وراء قواعد اللسانيات وتطبيقاتها. فالتعامل مع النصوص القرآنية يقتضي دراسة الخطاب والإحاطة بمختلف جوانبه ومعانيه وأسباب نزوله وغير ذلك. إضافة إلى ما يستتبع ذلك من صرف للمتلقي عن مقاصد القرآن وأهدافه إلى انغماس في محاولات تفهم قصد الكاتب ومراده وربط ذلك مع النص القرآني الذي يروم تأويله. في كثير من الأحيان ينصرف المتلقي عن المقصد الأهم من وراء تناول تلك الكتابات المتمثل في محاولة فهم النص القرآني إلى الدخول في دوامة من الركامات اللغوية الجامدة التي ترى في تبني هذا النهج، محاولة لتأويل النصوص وتفهمها![36].

كما ينبغي الإشارة إلى حقيقة منشأ الدراسات اللسانية وما تعتمده من مناهج حديثة تعود في جذورها إلى الوعي الغربي الحديث الذي لم يجد في دراسته ونقده لنصوصه الكتابية ثمة اختلاف عن أي نص أدبي آخر.

ولهذا الاعتبار وغيره فتقمص تلك المناهج بحذافيرها دون إجراء عملية تمييز وضبط لاستعمالها، له مخاطر منهجية وفكرية جمة، فالحاجة تبقى قائمة إلى إعادة بناء أنحاء أخرى تنبثق من الوعي المسلم بالنصوص ومفاهيمها وآليات التعامل معها.[37]

ومما يندرج تحت القراءة الشمولية كذلك، الاهتمام بعدم حصر المفردات القرآنية في المدلول اللغوي لها بمعزل عن سياقها القرآني. وقد ظهر أثر إغفال ذلك كثيرا في كتابات الأستاذ شحرور الذي تناول في دراساته خاصة في كتابه "الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة"

---

[36] - انظر على سبيل المثال دراسة الدكتور وليد منير، النص القرآني من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (مكتب القاهرة)، 1418هـ/1997م. فالكتاب على الرغم من تناوله لقضايا فيها شيء من الجدة والموضوعية، إلا أنه غص بالتعابير الجامدة والأساليب التعبيرية الغربية التي لا أرى أنا تسهم في فهم أو تأويل النص القرآني.

[37] - بتصرف عن: الفاسي الفهري، مرجع سابق، 56.

ألفاظاً متعددة مثل: الكتاب، القرآن، الرسول، النبي، الرب، الإله، الشيطان، الصور، الذكر، الزمن، الدائم، الخ...

فقد اعتمد اللغة في استنباط معاني كل الألفاظ التي تعرض لها، ولم يفرق بين اللفظ المصطلح الذي أعطاه الشرع معنى محدداً واللفظ العادي الذي يمكن أن يستقرئ معناه من معاجم اللغة فقط. الأمر الذي أوصله إلى تأويلات أبعد ما تكون عن القبول.

فالألفاظ التي أعطاها القرآن معنى معيناً، أو سياقا خاصا بها، يجب الوقوف فيها عند ذلك المعنى والسياق ولا ينبغي الانسياق في تقمص معانيها المعجمية اللغوية وتنزيلها مهما بلغت من التكلف والزيغ.

فكل الكلمات الشرعية مثل «الإيمان والصلاة والزكاة والصيام والحج، والكفر والشرك والنفاق، وما إليها» كانت لها معان بسيطة في الاستعمال العربي الجاهلي فقام القرآن بتنقيتها وشحنها بالمعاني التي أراد لها أن تحملها[38].

إن استحضار هذه القراءة وتوخي الالتزام بها يمكن أن يسهم في حسن إدراك العلاقة بين مختلف النصوص وتسديد القدرة على الجمع بينها في معالجة القضايا المثارة وتقديم تأويل رصين يعين على الالتزام بالجمع والتكامل وعدم اللجوء إلى ضرب النصوص بعضها ببعض وادعاء التناقض والتضارب الذي ادعاه الكثيرون من أصحاب التأويلات المحرفة.

الضابط الثاني: الاهتمام بالنظر في مقاصد السور القرآنية ومحاورها

جاءت النصوص القرآنية سورا وآيات كريمة لتحقيق مقاصد معينة في تربية النفس الإنسانية وتزكيتها والارتقاء بها لتحقيق مهمة الاستخلاف العظمى على الأرض وما يستتبع ذلك كله في مسار الوجود الإنساني.

---

[38] - بتصرف بسيط عن: الأستاذ الدكتور طه العلواني، الوحدة البنائية للقرآن المجيد، مرجع سابق، ص35.

والعلم بمقاصد السور وإن لم ينص عليه الأوائل من الصحابة الكرام وتابعيهم، إلا أنم اعتبروه بالاستقراء في تفسيراتهم. ولم ينص على هذا العلم بهذا الاسم إلا عند المتأخرين، شأنه شأن جميع العلوم، فإن العلوم كانت ممارسة عند السلف، لكن لم تكن التسمية موجودة.

وفي عدم الاهتمام بمقاصد السور يقول ابن القيم رحمه الله:" فما أشدها حسرة، وأعظمها غبنة، على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من هذه الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه ، فالله المستعان"[39] .

ومعرفة مقاصد السور ليست بخارجة أو منفكة عن نطاق النصوص ذاتها. كما أنها ترتبط بدرجة كبيرة ببعض الموضوعات الأخرى المتعلقة بالسورة، مثل:اسم السورة الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد تكون هذه التسمية مرتبطة بمقصد السورة، موضوعات السورة، ومكان نزول السورة، كذلك. فالسور المكية تعنى بما لا تعنى به السور المدنية كما ترتبط بما يعرف بالوحدة الموضوعية للسورة[40].

فالالتزام بهذا الضابط يستلزم النظر إلى السورة على أنها وحدةٌ متكاملة، لأن لكل سورةٍ في القرآن غرض ومقصد تحمله في طياتها، ويشكل موضوعا خاصا بها، ثم إن بينها وبين سابقتها ولاحقتها تناسب يحمل من الغايات والمعاني الكثير وهو ما أطلق عليه العلماء **علم المناسبات**.

يقول الشيخ سعيد حوى في ذلك:" إن معرفة أسرار التربية القرآنية، وطرائق القرآن في التربية، لا يدرك أبعادها الإنسان إلا بقدر إدراكه لأسرار القرآن، وبقدر ما نبنى هذه الأمة على ضوء المعرفة الصحيحة لكتاب الله نكون سائرين في طريق بناء الإنسان البناء الصحيح لأن الله عز وجل منزل القرآن هو الأعلم بالإنسان"[41].

.وحول القصور في إدراك مقاصد القرآن والوقوف على محاور سوره يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:

---

[39] - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عطا وآخرون، مكتبة نزار الباز، السعودية، 1416/ 1996م، ج1، ص 201.

[40] - يمكن الإفادة مما كتبه الأقدمون في هذا المجال ومن ذلك ما كتبه البقاعي، مصاعد النظر إلى الإشراف على مقاصد السور، وهو من مطبوعات دار المعارف بالرياض.

[41] - نقلا عن كتاب: أحمد بن محمد الشرقاوي، نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب: "الأساس في التفسير" للشيخ سعيد حوى رحمه الله، على الموقع الالكتروني: صيد الفوائد.

" القرآن أساس للحياة الأدبية في التاريخ الإسلامي لا شك أن آيات الأحكام كانت من وراء قيام علم الفقه التشريعي .لكن هل القرآن آيات أحكام فقط؟ أم انه مجموعات أخرى من الآيات تكون كل مجموعة محورا خاصا يدور عليه القرآن الكريم؟[42]". وقد أبرز الشيخ الغزالي في تفسيره الموضوعي هذا التوجه المقاصدي كثيرا[43].

وقد أدلى كثير من المفسرين المعاصرين في هذا المجال من أمثال الشيخ ابن عاشور والشيخ سعيد حوى[44] والدكتور عبدالله دراز[45] وغيرهم من أعمدة التفسير في العصر الحديث[46].

فقد سار ابن عاشور رحمه الله – على سبيل المثال- في تفسيره التحرير والتنوير على تقديم لمحة عن اسم السورة، و سبب تسميتها، ومكان نزولها والزمان الذي نزلت فيه، مخصصا بعد ذلك فقرة خاصة مستقلة يعرض فيها " أغراض السورة".

ويعد الاهتمام بمقاصد النصوص واستحضارها حال تناولها من أهم ضوابط القبول أو الرفض لأي تأويل. خاصة وأن عملية التوصل إلى المقاصد القرآنية العامة والخاصة لكل سورة، تستلزم عمليات تقصي واستقراء واسعة ومتواصلة للقرآن الكريم وللغايات الكبرى التي تنزل لتحقيقها في الأنفس والكون، فهي ليست منفكة عن النصوص أو خارجة عن إطارها.

وللعلماء والمفسرين المعاصرين اسهامات مفيدة، في بيان وسائل التوصل إلى تلك المقاصد والكشف عنها، وتقوم غالبها على الاستقراء والاستقصاء للنصوص. كما اهتمت العديد من الدراسات المعاصرة بهذا المنهج وتبنته في تفسيرها وظهر ذلك جليا في أدبيات التفسير الموضوعي والمهتمين به على وجه الخصوص.

---

[42] - محمد الغزالي،كيف نتعامل مع القرآن، مرجع سابق، ص 102.

[43] - محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، 1993/1414م.

[44] - يعد تفسيره الأساس في التفسير من هذا القبيل. راجع في تفصيل ذلك: نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب "الأساس في التفسير" للدكتور أحمد بن محمد الشرقاوي، مرجع سابق.

[45] - راجع كلامه السديد حول ذلك في سفره القيم: النبأ العظيم، عبد الله دراز، فصل: القرآن في سورة سورة منه- الكثرة والوحدة، ص142-163. الكويت، دار القلم، ط7، 1993.

[46] _ انظر كذلك كتاب محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن. و"مباحث في التفسير الموضوعي" للدكتور مصطفى مسلم، والدكتور محمد البهي في كتابه: "نحو القرآن"، والدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم"، والدكتورة بنت الشاطئ في كتابها "البيان القرآني".

وما علم المناسبات الذي اهتم به الكثير من العلماء السابقين رحمهم الله إلا تجليا لأهمية الكشف عن مقاد القرآن من مظانها. جاء في التقديم لكتاب مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي رحمه الله:" لقد عني بهذا الترابط بين الآيات والسور وسموه علم المناسبات وأفاضوا في إطرائه لما له من الأهمية في إدراك مقاصد القرآن وتدبر معانيه وتذوق بلاغته"[47].

كما أن إغفال أهمية استنباط مقاصد النصوص القرآنية يمكن أن يسهم في نشأة تأويلات متعسفة للنصوص يتم من خلالها النظرة الخارجية للنص بمعزل عن مقاصده. الأمر الذي ظهر أثره في تأويلات موغلة في الخوض في تفاصيل لم يقف النص القرآني عليها، أسهمت في صرف المتلقي عن مقصد النص ومراميه على أقل تقدير. وقد ظهر العديد من أمثلة هذه التأويلات في الدراسات القرآنية المعاصرة. ومن ذلك ما أورده بعض الكُتاب خاصة في تأويل تفاصيل القصص القرآني.

فقد جاء في بعض التأويلات لسورة سبأ وللفظة "المنسأة" بالذات بأنا النسبية الزمنية مؤكدا الكاتب بأن هذا عين ما آلت إليه سورة سبأ في خواتيمها. فقد أوتي النبي سليمان عليه السلام – كما يقول الكاتب- القدرة على نسأ الزمن بمعنى الزيادة فيه لحاجة والتأخير فيه وفق ما يرى[48].

وعلى الرغم من تأكيدنا بأن النص القرآني قد يحمل من المعاني ما لا يستنفذ فهمه وتأويله جيل واحد، وأن كل جيل سيجد في القرآن ما يعجزه بحسب مكاسبه العقلية وتقدمه في العلوم والمعارف، إلا أن ذلك لا يعني بحال الانفكاك من ضوابط الفهم والتأويل ومن ثم الانزلاق في تأويلات إسقاطية بعيدة من خلال تحميل اللغة ما لا تحتمله من المعاني.

والوقوع في ذلك قد يكون من خلال محاولات التوغل في تفسير ألفاظ أو مسائل بعيدة عن مقصد السورة الأمر الذي ينجم عنه إغراق المتلقي في تفاصيل لا يمكن الجزم بصحتها (كما

---

[47] - جلال الدين السيوطي، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، تحقيق: عبدالمحسن العسكر، مكتبة دار المنهاج، الرياض، 1426هـ، ص 11.

[48] - راجع ذلك على موقع الشيخ صلاح الدين أبو عرفة على الانترنت: http://www.homepagez.com/quran/

أشار الكاتب) وصرفه عن مقصد السورة بكاملها ومقصد الآيات الواردة حوله. وهو أمر يعود في الأصل إلى عدم الالتزام بهذا الضابط المحوري.

فالسورة تتحدث عن القوة والملك والجاه الذي لا ينبغي أن يصرف المؤمن عن مهمة الاستخلاف والعمران الحضاري في الأرض. ولا يخفى ما تتضمنه السورة من توجيه غير مباشر للأمة الإسلامية بأهمية القوة المادية وامتلاكها والحض على إيجاد التوازن بين جدلية الثروة والسلطة والتفوق المادي من جهة والقيام بمهمام الاستخلاف على الأرض وعدم بقاء الإنسان فيها.

وقد أكدت السورة أكدت من خلال عرض بعض مظاهر ملك سليمان عليه السلام المتفردة عن كل الممالك والحضارات السابقة واللاحقة له، أن الملك الدنيوي مهما بلغ فهو مسوق إلى الزوال والفناء ... وهذا (في تقديري والله أعلم) من أبرز مقاصد السورة التي لا ينبغي صرف ذهن المتدبر عنها.

وتوقف القرآن عن الخوض في تفاصيل أخرى كالمنسأة وطبيعة ملك سليمان ونحو ذلك من أمور شغلت مساحات واسعة في التفاسير، يدل على ذلك. فلابد من الاهتمام والتركيز بما فصلّه القرآن والتوقف عما أجمله القرآن. إضافة إلى أن الخوض في هذه التفاصيل، لا يترتب عليه أمر.

لهذا الاعتبار فإن فهم النصوص وتأويلها بعيدا عن مقاصدها أمر في غاية الخطورة، خاصة إذا لا بسته ظروف من قلة الفقه في اللغة العربية ومدلولاتها وأساليبها أو التعسف في إخراج المعاني من سياقها القرآني ومقاصده.

فالتأكيد على أهمية القراءة المقاصدية للسور والآيات القرآنية أمر في غاية الأهمية في تسـديد الفهم والتأويل لها، حتى تصبح المقاصدية ميزانا تعرض عليه التأويلات والتفسيرات وتحـاكم، إلى جانب غيرها من ضوابط.

بيد أن الحديث عن مقاصدية السور والآيات يسوقنا إلى طرح زاوية أسيء توظيفها من قبل البعض. فقد تم **اقتطاع هذا المصطلح (المقاصدية) من قِبل دعاة القراءة العصرانية**[49] **للقرآن وتمّ الترويج له** في **كتاباتهم** بمفهوم **يختلف** تمام **الاختلاف عن** معنى **مقاصد التشريع وغاياتها من جهة، وعن مقاصد القرآن والسور** الذي نحن بصدد الحديث عنه من جهة أخرى.

لقد خاض دعاة العصرنة في الحديث عن المقاصدية من باب تحويل الأحكام الشرعية المستنبطة من النصوص وفق مقاصديتها – كما يدعون- إلى قواعد انضباطية تسنها المجتمعات البشرية ليس إلا.

يقول الدكتور أبو زيد في سياق حديثه عن المقاصد:" إن البحث عن المقصد من خلال العرضي والمتغير هو الكفيل بتقديم قراءة مشروعة للنصوص الدينية، قراءة موضوعية بالمعنى النسبي التاريخي، ذلك أنه مع تغير الظروف والملابسات والأحوال...نحتاج إلى قراءة جديدة تنطلق من أساس ثابت هو المقصد الجوهري للشريعة".

ويرى الأستاذ محمد غانم أن الارتكاز على الغاية والحكمة والمقصد عند النظر إلى القرآن كفيل بتحقيق التسامي فوق النصوص والشروحات الفقهية ومحاولة الوصول إلى المحتوى العلمي للنص وروحيته الحقة[50].

وصفوة القول أن الحديث عن المقاصد لدى أصحاب هذا التوجه يختلف تماما عن الحديث عن مقاصد القرآن ومحاوره الذي أُثير من قبل كوكبة من علمائنا السابقين وبعض المعاصرين.

فقد انطلق دعاة القراءة العصرانية للقرآن من رؤى مختلفة تماما وتوجهات فكرية ومنهجية لا علاقة له بما ذكرناه سابقا إلا من حيث اللفظ.

---

[49] - تؤكد الكاتبة أهمية استعمال هذا المصطلح " القراءة العصرانية" وتتحفظ على استعمال مصطلحي القراءة الجديدة أو المعاصرة...لما تحمله الأولى من تحديد دقيق في توجهات اصحابها، في حين أن المصطلحات الأخرى لا تحمل بالضرورة تلازم بين المفهوم والمصطلح. فليس كل قراءة جديدة أو معاصرة يحكم عليها بالعصرنة. راجع أوراق مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي في دوروته السادسة عشرة فقد استعمل مصطلح القراءة الجديدة في سائر أوراقه.

[50] - محمد سالم غانم، من حقائق القرآن، دار الفارابي، بيروت، 2000م، ص 58.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن الإصلاحيين في الديانتين اليهودية والمسيحية قد شددوا على الغلو والإفراط في إعمال النزعة المقاصدية في فهم النصوص وتأويلها إلى حد تحويل الأحكام الشرعية - التي مرتكزها الوحي - إلى قواعد انضباطية اجتماعية تختلف من حين لآخر ومن مجتمع لغيره. كما تم توظيف **التطرف** في **توكيد المقاصد الغائية لديهم** في **تطويع الأوامر الإلهية لروح العصر ومطالبه.**

ولم تقف حركة الإصلاح اليهودية في مطالبتها بالتغيير عند حد المعاملات فحسب بل امتدت لتشمل نظام العبادات وطقوسها، حتى كانت الصلوات تؤدى باللغة الألمانية أكثر منها بالعبرية. وقد تمّ ذلك كله من خلال التوجه القائم على البحث في روح الديانة ومقاصدها بل وتحويل العبادة والصلاة من يوم السبت إلى الأحد تماشيا مع روح الدين ومقاصده دون ضرورة التقيد بتطبيق تلك الصور والشكليات.

لقد اعتبرت حركة الإصلاح تلك الطقوس والعبادات شكليات لا مبرر لها وعليه يمكن تغييرها أو الاستعاضة عنها مطلقا[51]. فالأحكام الصحيحة الوحيدة هي التي تخدم فلسفة الفقه المقاصدي -Teleological Jurist-، الذي يهتم بالغاية من تطبيق تلك الأحكام وكيفية توجيه هذه الغايات في سبيل تطوير الأحكام[52].

يقول المفكر والفيلسوف اليهودي المعروف *Jacob Neusner* مؤكدا ذلك:

“ The only authentic Halakhic approach must be that which approximates the philosophy of the **teleological jurist**. The teleological jurist asks: what are the ends of the law which God or nature ordained and how can we be guided by these ideal ends in developing the law?”[53]

وقد نجح دعاة القراءة العصرانية في إلصاق مسلك المقاصدية بطروحاتهم رغم التباين الهائل بين ما يرددونه والفكر الأصيل لها. وبرز ذلك الإلتصاق غير المشروع في وصف عدد من المفكرين المعاصرين لتأويلاتهم بالمقاصدية!.

---

[51] - ديفيد لانداو، مرجع سابق، 34.

[52]- Jacob Neusner, Judaism in Modern Times, Ibid, p. 94.

Rackman, Emanuel, *Sabbaths and Festivals in the Modern Age*, Yeshiva University, New York, 1961.

[53]- Jacob Neusner, Judaism in Modern Times, Ibid, p. 94. وقد نقل العبارة عن:

Rackman, Emanuel, *Sabbaths and Festivals in the Modern Age*, Yeshiva University, New York, 1961.

يقول الأستاذ الدكتور عبدالمجيد النجار في سياق نقده للقراءة الجديدة للنصوص الدينية تحت عنوان **التأويل المقاصدي:"** تقوم هذا القراءة على اعتبار أن أحكام الشريعة لم تشرع إلا لتحقيق مقاصدها فهي تقوم مقام الوسائل بالنسبة للغايات فأحكام الحدود لم تشرع إلا لردع مقترفي المعاصي...بحيث لا تحمل هذه الاحكام قيمة في ذاتها وإنما قيمتها في مقاصدها فإذا ما حقق حكم من الأحكام مقصده، فإنه يكون قد استنفذ أغراضه فلا يبقى إذن مبرر لبقائه ملزما.."[54].

لقد حاول دعاة القراءة العصرانية تمرير تأويلاتهم المتعسفة في التحرر من سلطة النصوص على أكتاف ادعاء المقاصدية، فجاءوا إلىالنصوص بنظرة مسبقة لا ترى فيها إطارا مرجعيا ينبغي الاحتكام إليه، لتصبح المقاصدية (وفق ما يرونه) المرجعية المركزية لكل تأويلاتهم وأفهامهم.

بيد أن هذا كله لا ينبغي أن يسوقنا إلى تمرير هذا الادعاء وتأكيد طموحاتهم في الترويج لقراءتهم بالمقاصدية[55].

لهذا الاعتبار كان لابد من تأكيد المحاور التالية في هذا السياق:

أولا: النصوص الشرعية جاءت لتحقيق مقاصد الشارع الراجعة إلى الحفاظ على مصلحة الخلق ودفع المفسدة عنهم. وهذه المقاصد ليست بخارجة أو منفكة عن نطاق النصوص ذاتها. بل إن النصوص جاءت لتحقيقها فلا ينبغي أن تفهم أو تؤول بتأويل بعيد عن تلك المقاصد والأهداف العامة. فكل نص يحمل تحقيق مقصد إلهي ينبغي أن يعين ذلك المقصد ويجري على أساسه فهم النص. وعلى المتلقي استفراغ وسعه وجهده في التدبر في النصوص الشرعية للكشف عن مقاصدها من خلال ما أشرنا إليه. وقد تناول العلماء السابقون رحمهم الله الذين تكلموا في مقاصد القرآن عن وسائل التوصل إلى تحديد مقاصد القرآن ومن أهمها علم

---

[54] - عبدالمجيد النجار، القراءة الجديدة للنص الديني..عرض ونقد، ورقة مقدمة لمؤتمر مجمع الفقه الإسلامي في دورته السادسة عشرة، دبي، ص 17.

[55] - عدد من أوراق مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي المشار إليه آنفا ركزت على سمة المقاصدية في القراءة الجديدة الأمر الذي يوحي بالخطر من جراء الاسترسال في هذا الحديث ويستدعي قراءة تستشرف المستقبل من خلال هذا التجاذب الفكري الخطير. انظر على سبيل المثال ورقة الأستاذ الدكتور: محمد بن الهادي أبو الاجفان، القراءة الجدية لنصوص الوحي ومناقشة مقولاتها، المؤتمر المذكور سابقا، ص 15 من بحثه.

المناسبات الذي يكشف عن الترابط والتناسق بين الآيات والسور. كما بدأ اهتمام المعاصرين به يتزايد في الآونة الأخيرة.

ثانيا: تعيين مقصد معين من خارج محتوى النص ثم تأويل النص على أساسه يمكن أن يؤدي إلى الزيغ في الفهم والانحراف في التأويل بل وفسح المجال للإتيان للنص برؤى مسبقة.

ثالثا: اعتبار مقاصدية النصوص ومراعاتها في فهم النصوص، لا تعني الإطلاق وعدم التقييد، فاستدعاء الضوابط وتقصي العمل والسير بها يمكن أن يسهم في ضبط موقع العقل في دائرة فهم تلك المقاصدية. والبحث في مقاصدية النصوص يستلزم من المتلقي والمؤول السير عليها وفق الضوابط والشروط الموضوعة لها، والتي يفترض فيها أن تكون متسمة بالاطراد والثبات والانضباط لنفي الاضطراب والتحكمات بدون دليل أو مرجح.

رابعا: الخوض في مقاصدية النصوص بدون ضوابط أو شروط يمكن أن يسوق إلى الوقوع في التعارض بين القطعيات والظنيات والضروريات وغيرها من مراتب المقاصد. لهذا الاعتبار كان التوسع في الاجتهاد المقاصدي دون ضوابط منهجية وثوابت شرعية، منزلقا خطيرا ينتهي إلى التحلل من أحكام الشرع أو تعطيلها باسم المصالح والمقاصد، فتحاصر النصوص وتوقف الأحكام الشرعية باسم تحقيق المقاصد والغايات.

خامسا: التوجس من الإفراط في الاعتماد على مقاصدية النصوص أو سوء تطبيقها بكل ما يحمل من مبررات ومسوغات، لا يقتضي إهدار أو إلغاء دور المقاصدية أو التقليل من أهميتها في تحقيق فهم سليم للنصوص في سبيل **بناء وتكوين ضوابط القبول والرفض لأي تأويل أو جهد يروم استحضار النهج المقاصدي**[56]. كما لا ينبغي أن يسوق إلى إلصاق منهج المقاصدية الأصيل بمنهج سقيم على أساس تلبسه البعض به. الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى توجه الحذر من كل فكر يدعو إلى تبني المقاصد الأصيلة في الدين.

وترى الدراسة أن دعاة القراءة العصرانية أو الحداثية للقرآن قد نجحوا - إلى حد ليس بالقليل- في تمرير الكثير من أفكارهم وطروحاتهم من خلال صد الجهود الفكرية المخلصة عن

---

[56] - أنظر في التلميح لهذه المعاني: عمر عبيد حسنة، تقديم كتاب الأمة الاجتهاد المقاصدي حجيته ضوابطه ..مجالاته، مرجع سابق، ج1، 34.

السير قدما نحو تبني المنهج المقاصدي والاهتمام به من خلال دعوى اهتمامهم بالمقاصد، حتى باتت قراءاتهم تناقش باعتبارها قراءات مقاصدية![57].

سادسا: لئن تبدى لنا استغفال دعاة القراءة العصرانية للقرآن الضوابط العامة التي تختص بـ تأويل وفهم النص القرآني، فإنه تتمة لهذا ينبغي الإشارة إلى الدور الباطني الذي تلعبه هذه القراءة في معركة التأويل.

فمن الثابت علميا وواقعيا أن عملية ضرب الأفكار لا تتم بشكل مباشر، بمعنى أن التركيز على فكرة معينة ومحاولة صرف التيار العام عن الاهتمام بها، لا يأتي من خلال النقد المباشر لها أو تشويهها دفعة واحدة بل من خلال تسلسل فكري في غاية الخطورة قد يظهر متسما بالعفوية.

ويتم ذلك من خلال تبني اتجاه مشبوه ممقوت (من قبل التيار السائد في الاوساط العلمية) لهذه الفكرة (التي يراد ضربها) ومن ثمّ تركيزه على هذه الفكرة، الأمر الذي يؤدي بمرور الوقت إلى تسرب الشك والتوجس منها ومن ثم توجيه ضربة الانقضاض عليها وهي في مهدها.

لهذا الاعتبار لنا أن نتساءل بموضوعية عن أسباب إثارة دعاة العصرانية الحاجة إلى قراءة التبست بمسوح المقاصد والسياق والدفاع عن القرآن!! أهو ضرب من ألوان ضرب الأفكار الذي طالما مارسه أعداء الأمة في سني تاريخها الحديث بشكل خاص[58]! أهذا ما يراد بتوجهات المقاصدية والدراسات اللغوية والعلمية ونحوها من خلال تقمص مدسوس لأرباب القراءة العصرانية لها!!.كل هذه التساؤلات وغيرها لا ينبغي أن تغيب عن العقلية المسلمة في خضم الانغماس والاسترسال في طروحات الدفاع وصد الهجوم.

---

[57] - انظر على سبيل المثال: الأستاذ الدكتور محمد أبو الأجفان، القراءة الجديدة لنصوص الوحي ومناقشة مقولاتها، مؤتمر مجمع الفقه الإسلامي، الدورة السادسة عشرة، 9-14/4/ 2005م، ص 15-16. فقد ناقش فيها مقولات هؤلاء حول مراعاة المقاصد.

[58] - راجع حول ذلك الكتاب المنسوب إلى صلاح نصر، الحرب النفسية، معركة الكلمة والمعتقد، ج1، ج2، ط2، 1967م. وانظر كذلك: فاتن مرسي، الإعلام الرشيد وحماية الدماغ من الغسيل، مجلة الدفاع، علىالموقع الالكتروني:
.http://www.al-difaa.com/Detail.asp?InSectionID=942&InNewsItemID=130284

خاتمة البحث

استهدفت هذه الورقة فتح ملف ضبط تأويل النصوص القرآنية في الدراسات المعاصرة. الذي أدى غياب التوازن في طروحاته والبعد عن استشراف مستقبله إلى التحول من الاهتمام المباشر بالنصوص ومعانيها الظاهرة ومحاولات تنزيلها على الواقع الإنساني لتهذيبه ومعالجته، إلى الانتقال إلى من يؤول النص والاهتمام بتفنيد تأويلاته وأفكاره والرد عليها كما هو واقع اليوم في أروقة العديد من المؤتمرات والملتقيات الخاصة بالدراسات القرآنية.

وقد تقاسم واقع الدراسات القرآنية على وجه العموم تياران غالبان: الأول تمثل فيما أطلقت عليه الدراسة (تيار القراءة العصرانية للقرآن) اتسم بالإغراق في التأويلات البعيدة وتحميل النصوص القرآنية ما لا تحتمل من المعاني البعيدة عن كل موازين اللغة وفقهها ومقاصد القرآن ونحوها. أما الثاني فقد تمثل في تيار محافظ متشدد يروم الدفاع عن القرآن من تلك الهجمة الفكرية التأويلية، من خلال الغلو في التوسع في شروط الفهم والتأويل وطرح مسلك التوجس والحذر المبالغ فيه من أي فكر اجتهادي أو توجه تجديدي مهما كان.

وقد وقفت الدراسة على بعض ضوابط التأويل وأكثرها جدلا في أروقة التيارين التي غلبت على واقع الدراسات المهتمة بالقرآن وهي: القراءة الشمولية للنصوص والاعتماد على شهادتها الداخلية لأي تأويل أو فهم، مع الاهتمام بقواعد اللغة العربية التي نزلت النصوص بها، والاهتمام بالقراءة المقاصدية لسور القرآن ومحاورها.

وتؤكد الدراسة أهمية استشراف مستقبل الإقبال على فهم النصوص القرآنية ودور هذه الدراسات والطروحات في إنهاء حالة البعد بين عامة المسلمين وكتاب الله. كما تفتح الدراسة باب التساؤل حول أهمية ومشروعية الانسياق والاستمرار في الجدل الدائر حول تأويل النص القرآني في إعادة القرآن الكريم إلى واقع الحياة وهيمنته على العقلية المسلمة وترشيده لسيرها الفكري والمنهجي. وتسير الدراسة في هذا الطرح على منهج يتسم بالتتبع والتقصي والتحليل والاستنباط.

والله الهادي إلى سواء السبيل.